من مغمورى العلمـــاء

الأستاذ محمد كرد على بك

ابن حبان — (بقية ما نشر فى العدد ٧٧٧)

من الحكايات التى ساقها ابن حبان قوله: سمعت إسحق بن أحمد القطان البغدادى بتستر يقول : كان لنا جار ببغداد كنا نسميه طبيب القراء ، كان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم . فقال لى دخلت يوماً على أحمد بن حنبل ؛ فإذا هو مغموم مكروب . فقلت . مالك يا أبا عبد الله ؟ قال : خير . قلت : ومع الخير ؟ قال : امتحنت بتلك المحنة (القول بخلق القرآن) حتى ضُربتُ ثم عالجونى وبرأت ، إلا أنه بقى فى صلبى موضع يوجعنى هو أشد علىّ من ذلك الضرب . قال : قلت : اكشف لى عن صلبك ، قال : فكشف لى فلم أر فيه إلا أثر الضرب فقط ؛ فقلت : ليس لى به معرفة ، ولكن سأستخبر عن هذا . قال : فخرجت من عنده حتى أتيت صاحب الحبس ، وكان بينى وبينه فضل معرفة . فقلت له : أدخل الحبس فى حاجة ؟ قال : ادخل . فدخلت وجمعت فتيانهم ، وكان معى دريهمات فرقتها عليهم ، وجعلت أحدثهم حتى أنسوا بى ؛ ثم قلت : من منكم ضُرب أكثر ؟ قال : فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضرباً، وأشدهم صبراً . قال : فقلت له أسألك عن شىء ؟ قال : هات . فقلت : شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم ، ضرب على الجوع للقتل سياطاً يسيرة ؛ إلا أنه لم يمت وعالجوه وبرأ ؛ إلا أن موضعاً فى صلبه يوجعه وجعاً ليس له عليه صبر . قال : فضحك . فقلت : مالك ؟ قال : الذى عالجه كان حائكا . قلت : فما الحيلة ؟ قال : يُبطُّ صلبه ، وتؤخذ تلك القطعة ويرمى بها ، وإن تركت بلغت إلى فؤاده فقتلته . قال : فخرجت من الحبس ؛ فدخلت على أحمد ابن حنبل ، فوجدته على حالته ؛ فقصصت عليه القصة . قال : ومن يبطه ؟ قلت : أنا . قال : أوَ تفعل ؟ قلت : نعم . قال : فقام فدخل ثم خرج وبيده مخدتان ، وعلى كتفه فوطة ؛ فوضع إحداهما لى والأخرى له ؛ ثم قعد عليها ، وقال : استخر الله . فكشفت عن صلبه وقلت : أرنى موضع الوجع . قال : ضع إصبعك عليه ؛ فإنى أخبرك به . فوضعت إصبعى وقلت : هاهنا موضع الوجع قال : ههنا أحمد الله على العافيه . فقلت : ههنا ؟ قال : ها هنا أحمد الله على العافية . فقلت : هاهنا ؟ قال : ها هنا أسأل الله العافية . قال: فعلمت أنه موضع الوجع . قال: فوضعت المبضع عليه فلما أحس بحرارة المبضع وضع يده على رأسه وجعل يقول : اللهم اغفر للمعتصم حتى بططته . فأخذت القطعة الميتة ورميت بها ، وشددت العصابة عليه ، وهو لا يزيد على قوله : اللهم اغفر للمعتصم . قال : ثم هدأ وسكن ؛ ثم قال : كأنى كنت معلقاً فأحدرت . قلت : يا أباعبد الله إن الناس إذا امتحنوا محنة دعوا على من ظلمهم ، ورأيتك تدعو للمعتصم . قال : إنى فكرت فيما تقول ، وهو ابن عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكرهت أن آتى يوم القيامة وبينى وبين أحد من قرابته خصومة . هو منى فى حلّ .

ومن حكاياته أيضاً : أنبأنا محمد بن صالح الطبرى بالصيمرة ، حدثنا محمد بن عثمان العجلى قال : لما حدث شريك بحديث الأعمش عن سالم عن ثوبان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإذا خالفوكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم فأبيدوا خضراءهم ؛ فإن لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء . فسعى به إلى المهدى فبعث إلى شريك فأتاه فقال : حدثت بها ؟ قال : نعم. قال : عمن رويتها ؟ قلت : عن الأعمش. قال : ويلى عليه ! لو عرفت مكان قبره لأخرجته فأحرقته بالنار . قلت : إن كان لمأموناً على ما روى . قال : يا زنديق لأقتلنك . قلت : الزنديق من يشرب الخمر ويسفك الدم. قال : والله لأقتلنك. قلت : أو يكفى الله . قال : فخرجنا من عنده فاستقبلنى الفضل بن الربيع فقال : ليس لك موضع تهرب إليه . قلت : بلى . قال : فانه أمر بقتلك . قال : فخرجت إلى جبل ، فخرجت يوماً أتجسس الخبر فأقبل ملاح من بغداد ، فاستقبله ملاح آخر من البصرة ؛ فسأله : ما الخبر ؟ قال : مات أمير المؤمنين . قلت يا ملاح قرب فقرب .

الماوردى سنة ٤٥٠

إمام فى الفقه والأصول والتفسير ، بصير بالعربية ، كاتب من الطراز الأول ؛ نشأ فى البصرة ، وتولى القضاء فى بلدان كثيرة ، وكان شافعى المذهب ، وقيل إن فيه عبقة من الاعتزال . صنف

كتباً لم ينشر بالطبع منها غير « الأحكام السلطانية » و « أدب الدنيا والدين » و « أعلام النبوة » و « قانون الوزارة » ، ومن كتبه الضائعة « الحاوى » فى الفقه ، قيل لم يصنف مثله . وله تفسير القرآن الكريم ، والنكت والعيون ، والإقناع فى المذهب ، وغير ذلك ، وعمّر ستاً وثمانين سنة وسكن بغداد بأخرة .

هـذا موجز ما ترجم له المترجمون ، وما أثر من كتبه غاية الإبداع فى تصنيفه ، تظهر فيها شخصيته ، وتتجلى تجاربه ومعرفته بأمور الدول ، وتاريخ الحركات الفكرية والسياسية فى الإسلام . تتمثل الماوردى وأنت تقرأ الأحكام السلطانية عالماً عصرياً قتل الحياة تجربة ، وما دوّن للناس إلا ما ينفعهم بإيجاز لا خلل فيه ، وهو من الكتب التى إذا قرأتها مرة ساقتك بدون تقصد منك إلى معاودة قراءتها ؛ بل لو قرأتها مرات شاقتك فتصفحها مرة ومرة . وحقاً إن هـذا السفر الممتع هو مرجع فريد فى فنه : كتاب فى جرم صغير ونفع غزير . ولو لم يكن له غيره من المصنفات لكفى أن يعدّ صاحبه من أعظم المؤلفين المجودين وأنت إذا حدقت النظر فى هذا الإبداع تراءى لك أن الماوردى لم يتقن من فنون العلم غير هذا العلم ، وإنه شغل بوضعه زمناً طويلاً فى حياته ، فقد جمع هذا العظيم إلى معرفته الكاملة بشرع الإسلام معرفة توازيها فى سياسة الناس ، وحسن القضاء بينهم ، وقيام الدول ونُظمها . ولقد أفاض فى الأحكام السلطانية فى الخلافة ، وتقليدها ، والوزارات وأنواعها ، والإمارات والولايات ، والقضاء وضروبه ، والمظالم والنقابات والجبايات من خراج وجزية وصدقات وحمى وأرفاق وإقطاعات ، وكلام على أنوع الدواوين ، وأحكام الجرائم والحسبة والمنكرات والمعروفات ، وغير ذلك مما له مساس بأحوال المجتمع ، وفيه مقنع لمن ادعوا أن المسلمين أيام عزهم كانوا يسيرون على غير قوانين مدونة . وما أشبه كتاب الأحكام السلطانية بالشريعة الإسلامية يصلح لكل جيل وكل قرن ، لا يمروه عتق ولا وهن . وأنت كلما أمعنت النظر فى صفحاته زدت حرمة لصاحبه ، وإعجاباً بما خطته أنامله على القرطاس ، ولا نعدو الحق إذا قررنا أن كتاب « أدب الدنيا والدين » هو أيضاً من أمتع ما كتب علماء الأخلاق والتربية ، مصادره الكتاب الكريم ، والسنة الصحيحة ، وأقوال الحكماء والبلغاء ، وفيه طائفة من الشعر البديع والنثر المنسجم ؛ لو درسه الطالب أجزاء عن المطولات ، وكان له مادة يستشهد بها مدى حياته .

وبعد فان الماوردى لا يعدُّ من المكثرين جداً من التآليف ، ولكنه يحشر فى المجودين جداً فيه ؛ فهو نابغة عصره فى تطبيق مفاصل الشريعة ، واستبطان أسرارها ، أتى بجديد ما كان يعرفه الناس ، ولا اهتدت إليه القرائح قبله ، وأخذ من القديم كل ماينفع ويرفع ، وكان له من توليه القضاء درس حال البيئات الكثيرة ومن طول عمره معوان على تفهم ما قرأ وثقف ودرّس ، وتمثل ما روى وروى . وبتفرغ قلبه من هموم الحياة فرغ وقته لنشر أنوار علمه ؛ فأخذ بمجامع القلوب فى حياته وبعماته ، وكان اعتداله وإخلاصه ما كف الألسن عنه حياً ، وخالف عرف أبناء جيله فى مسائل اجتهد فيها فتحملوه وما تبرموا به ، وا كتفى من دنياه بما أعطته فكان خير معلم ومرشد .

ولقد روى فى أدب الدنيا والدين شيئاً دل على بعد غوره وفرط دهائه قال : وربما صنع ذا السفاهة من طلب العلم أن يصور فى نفسه حرفة أهله وتضايق الأمور مع الاشتغال به حتى يسمهم بالأدباء ، ويتوسمهم بالحرمان ؛ فإن رأى محبرة تطير منها ، وإن وجد كتاباً أعرض عنه ، وإن رأى متحلياً بالعلم هرب منه ، كأنه لم ير عالماً مقبلاً وجاهلا مدبراً . ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوى منازل وأصول ، كنت أخفى عنهم ما يصحبنى من محبرة وكتاب لئلا أكون عندهم مستثقلا وإن كان البعد عنهم مؤنساً ومصلحاً ، والقرب منهم موحشاً مفسداً .

وهاك مثالاً واحداً من إخلاصه فى قضائه وتحريه للحق : لما أمر الخليفة أن يزاد فى ألقاب جلال الدولة ابن بويه لقب « ملك الملوك » لم يُفت مع من أفتى بجواز ذلك ؛ مع أنه كان من خواص جلال الدولة ، فلما أفتى بالمنع انقطع عنه . فطلبه جلال الدولة ، فمضى إليه ، على وجل شديد ؛ فلما دخل قال له : أنا أتحقق أنك لو حابيت أحداً لحابيتنى لما بينى وبينك ، وما حملك إلا الدين ؛ فزاد بذلك محلك عندى .

وقال عن نفسه فى كتابه أدب الدنيا والدين : ومما أنذرك به من حالى أننى صنفت فى البيوع كتاباً جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس ، وأجهدت فيه نفسى ، وكددت فيه خاطرى ، حتى إذا تهذب واستكمل ، وكدت أعجب به ، وتصورت أننى أشد الناس اضطلاعا بعلمه ؛ حضرنى وأنا فى مجلسى أعرابيان